المطلب الثامن عشر
نداء التَّحنن والاستعطاف والتَّحبب

تتنوع أساليب التَّحنن والاستعطاف والتَّحبب، وذلك بحسب المنادَى، فمن ذلك: التوجه إلى الله عَزَّوَجَلَّ بصدق الافتقار والإخلاص، وتصدير النداء بما يتضمن: الاستعطاف نحو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران:١٩١-١٩٤]. حيث إنَّ تصديرَ الدُّعاء بـ (رَبَّنَا) فيه من الاستعطاف ما لا يخفى؛ ولذا كَثُرَ تصدير الدُّعاء به[(١)]. "وتكرر لفظ (رَبَّنَا) خمس مرات، كلُّ ذلك على سبيل الاستعطاف وتطلُّب رحمة الله عَزَّوَجَلَّ بندائه بهذا الاسم الشَّريف الدالِّ على التَّربية والملك والإصلاح. وكذلك تكرر هذا الاسم في قصة آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ونوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وغيرهما. وفي تكرار (رَبَّنَا) دلالة على جواز الإلحاح في المسألة، واعتماد كثرة الطَّلب من الله عَزَّوَجَلَّ"[(٢)].

---

(١) انظر: روح المعاني (٤٧/٢٤).

(٢) البحر المحيط (٤٧٦/٣)، وانظر: روح المعاني (٤٧/٢٤). ونحوه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾﴾ [غافر:٧-٨]. إلى قوله: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [غافر:١١]. انظر: روح المعاني (٤٧/٢٤).

ومن ذلك ما قيل في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:١٥٠]، وقوله: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه:٩٤].

قال شيخ الإسلام أبو السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "خصّ الأمَّ بالإضافة استعظاماً لحقها وترقيقاً لقلبه لا لما قيلَ من أنه كان أخاه لأم فإن الجمهورَ على أنهما كانا شقيقين"(١).

وفي (الكشاف): "قيل: كان أخاه لأبيه وأمه، فإن صح فإنما أضافه إلى الأم؛ إشارة إلى أنهما من بطن واحد. وذلك أدعى إلى العطف والرقة، وأعظم للحق الواجب؛ ولأنها كانت مؤمنة فاعتدَّ بنسبها؛ ولأنها هي التي قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقها"(٢).

وكذلك قوله: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف:١٥١]؛ فإن ذكر وصف الأُخوة فيه زيادة في الاستعطاف؛ عسى الله عَزَّوَجَلَّ أن يُكرم رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمغفرة لأخيه، كقول نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود:٤٥](٣).

وكذلك النِّداء بنحو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٧]. قال البقاعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لما كان المقصودُ من ذكر القَصص -ولاسيَّما قصصُ الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ- الاعتبار بها، فكان بيان ما وقع بين آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وبين الشَّيطان من شديد العداوة

---

(١) تفسير أبي السعود (٦/٣٨).

(٢) الكشاف (٢/١٦١)، وانظر: تفسير النسفي (١/٦٠٧)، تفسير ابن جزي (١/٦٠٧)، تفسير النيسابوري (٣/٣٢٢).

(٣) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٩/١١٨)، المنار (٩/١٨٠).

مقتضيًا للتَّحذير من الشَّيطان، وكان المقام خطرًا، والتَّخلص عسرًا، أشار إلى ذلك بالتَّأكيد، وبيان ما سلط الشَّيطان به من المكايد الخفيَّة، والأسباب الدَّقيقة، ليعلم النَّاجي أنَّه إنَّما نجا بمحض التَّوفيق، ومجرَّد اللُّطف، فيُقبل على الشُّكر متبرِّئًا من الحول والقوَّة، فقال مناديًا لهم بما يُفْهم الاستعطاف والتَّراؤف والتَّحنن والتَّرفق والاستضعاف: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾، أي: الَّذي خلقته بيدي وأسكنته جنَّتي..."[1].

ومن ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود:٤٢]. ومعلوم أنَّ نداء الوالد ولده من باب التَّحنن والرَّأفة[2]. يقطر منه الاستعطاف[3].

ومن ذلك ما قيل في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود:٤٥]. فهذا النِّداء منه عَلَيْهِ السَّلَامُ يقطر منه الاستعطاف، وجميل التَّوسل إلى من عهده منعمًا مفضلًا في شأنه أوَّلًا وآخرًا، وهو على طريقة دعاء أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣][4]. وقد سبق أنَّ ذكرَ وصف الأخوَّة هناك فيه زيادة في الاستعطاف عسى الله عَزَّوَجَلَّ أن يكرم رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمغفرة، فكذلك ذكر البنوَّة هنا في قول نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾.

ومن ذلك نداء لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه بقوله: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ [لقمان:١٣]، وقد تكرر ذلك النداء بعد ذلك: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ

---

(١) نظم الدُّرر (٧/٣٨٠).

(٢) انظر: روح المعاني (١٢/٥٩).

(٣) انظر: المصدر نفسه (١٢/٧٠).

(٤) انظر: روح المعاني (١٢/٦٨)، وانظر: التَّحرير والتَّنوير (٩/١١٨)، المنار (٩/١٨٠). ونحوه قول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف:١٥١].

الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان:١٦-١٧].

ومن ذلك ما قيل في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾ [هود:٩٢-٩٣]. خاطبهم خطاب الاستعطاف والتَّلطف[(١)].

ومن ذلك نداء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم:٤١-٤٥][(٢)].

ومن ذلك تلطُّفِ صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ بقومه، ورفقه بهم في الخطاب حيث قال مناديًا لهم على جهة التَّحنن عليهم: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل:٤٦]، أي: بوقوع ما يسوؤكم قبل الحالة الحسنة، وهي رحمة الله عَزَّوَجَلَّ[(٣)].

ومن ذلك ما قيل في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾﴾ [غافر:٧-٨]. وقد سبق أنَّ تصدير الدُّعاء بـ (ربنا) فيه من الاستعطاف ما لا يخفى.

وقد يستخدم الاستعطاف كمنهج من مناهج الدَّعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ومن ذلك ما قيل في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ

---

(١) انظر: البحر المحيط (٥/٢٥٦).

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/٢٥٠).

(٣) انظر: البحر المحيط (٧/٩٧)، السِّراج المنير (٣/١٠٩)، نظم الدُّرر (٥/٤٣١).

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف:٦]. فإن فيه من الاستعطاف ما فيه. قيل: إنَّ الاستعطاف بما ذكر لما فيه من التَّعظيم، وقد كانوا يفتخرونَ بنسبتهم إلى إسرائيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[1].

(١) انظر: روح المعاني (٢٨/٨٥-٨٦).